# رسالة الإسلام
# تجليات الحاضر وإمكانيات مواجهة المستقبل

الدكتورة عبد ميثاء الشامسي

نشر في كتاب

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي

"بلاد الجزيرة العربية"

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م

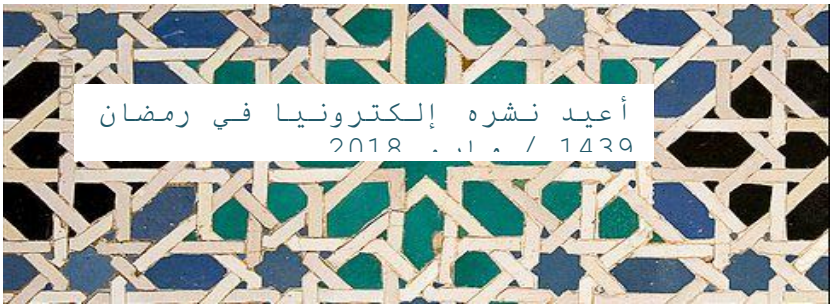


# رسالة الإسلام

# تجليات الحاضر وإمكانات مواجهة المستقبل

**دكتورة ميثاء الشامسي**(*)

(*) نائب المدير لشؤون البحث العلمي، جامعة الإمارات العربية المتحدة (دولة الإمارات العربية المتحدة).

يجب على المثقف العربي المسلم أن ينظر إلى الوقائع «من زاويتها الإنسانية الرحيبة ليدرك دوره الخاص ودور ثقافته في الإطار العالمي»، ويتهيأ إلى الحوار مع ثقافة (الآخر)، حواراً يحفظ به وجوده، وينمي ثقافته، ليكون في مستوى التفاعل الحقيقي لا في مستوى الخضوع والاستسلام.

## مقدمة: في أهمية الدراسة وموضوعها:-

يؤكد المؤرخون والمشتغلون بالدراسات الإنسانية على الدور الفاعل الذي لعبته الرسالة الإسلامية في تحقيق العديد من التغيرات والإنجازات الهائلة في مختلف المجالات في مجتمع شبه الجزيرة العربية، بل والمجتمعات العربية الإسلامية. وقد جنى الأفراد والجماعات ثمار هذه التغيرات وتطورت - على أثرها - الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، بل وازدادت مكانة العالم العربي الإسلامي قوة على الخريطة العالمية. لكن صورة الحاضر التي رسمتها التغيرات السياسية والتكنولوجية، في القرون الماضية بعامة وأوائل القرن الحالي بخاصة، تبرهن على أن أمور المسلمين قد تبدلت، وأن كياناتهم قد ضعفت، وأن واقعهم الاجتماعي أصبح مفككاً، وأن مكانتهم الاقتصادية والسياسية، على الخريطة الدولية ليست متميزة، إذا ما قورنت بمكانة الآخرين الذين ينتمون إلى الثقافات الأوروبية عامة والثقافة الأمريكية خاصة.

وتثير هذه الأوضاع تساؤلات عديدة، حول الأسباب المؤدية لذلك؛ هل هي كامنة في الرسالة التي أتى بها الإسلام، أم في مضمون تلك الرسالة والتي تعكسها الثقافة الإسلامية بمقوماتها وخصائصها، أم في الممارسين لهذه الثقافة، والطرق التي يتعاملون بها، والمؤسسات التي تتكفل برعايتها وصيانتها، هذا ما ستجيب عليه هذه الدراسة من خلال استعراض لعدة موضوعات ترد في ثلاثة أقسام على النحو الآتي:-

**القسم الأول** : ونعرض فيه لطبيعة الرسالة الإسلامية ومضامينها، التي تجسدها الثقافة الإسلامية بمقوماتها المتميزة ومعالمها الفريدة.

**القسم الثاني**: ونعرض فيه لحاضر المجتمعات العربية الإسلامية والتحديات التي تواجه الإسلام والثقافة الإسلامية.

**القسم الثالث**: ونعرض فيه لإمكانات وسبل تقوية دعائم وبناء الثقافة الإسلامية لتغيير الواقع ومواجهة التحديات الحالية والمستقبلية.

# القسم الأول
# في مضمون الرسالة ومعالم الثقافة الإسلامية

يشار إلى الإسلام، باعتباره رسالة سماوية أتت للبشرية جمعاء، وإن كانت الجزيرة العربية مهدها الأول، لكنها رسالة بأفكارها ومعتقداتها ونظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية طرحت نفسها باعتبارها دين ونهج كل البشرية دون استثناء؛ أي أنها كانت ترى في العالم كله ميدانها وفي الإنسانية روحها ورسالتها، وبالتالي فقد عولمت الفكر الديني، الذي بدوره عولم الاقتصاد والسياسة.

فقد كان من تقدير الله وحكمته أن تكون هذه الرسالة خاتمة الرسالات لما تتم به من صلاح كامل للبشرية كلها. ومن تقديره وحكمته أيضاً أن تكون الرسالات التي سبقت الإسلام قد اقتصرت في نزولها على أمة معينة بذاتها، وخلال مدة من الزمن محدودة، وذلك في ضوء الملائمة التي تستدعيها ظروف الأمة وأحوالها في زمن من الأزمان دون غيره. لكن رسالة الإسلام قد قدرت تقديراً ربانياً محكماً لتناسب الأحوال والظروف كافة، ولتلائم الحاجات والمقتضيات البشرية طيلة العصور والأزمان. وليس لأحد بعد ذلك أن يساوره الشك حول صلاحية الإسلام باعتباره خاتم الأديان، ذلك أن هذا الدين بطبيعته الشاملة المرنة يحتوي على أصول المسائل جميعاً، فلا يقف عاجزاً أمام المشكلات، ولا يعزب عن تقديره وشموله أي معني من معاني الحق والخير في العقيدة أو الأخلاق أو التشريع. وعلى ذلك، فقد احتوى

الإسلام عناصر الإصلاح التي تيسر تطبيقه والعمل به في كل زمان، ولكل أمة على وجه الأرض[1].

وللإسلام ثقافة تعد نتاجاً لعقيدة متينة مترابطة ولفيض عظيم من الفقه الشائع الخصب، الذي يشمل الحياة برمتها مع الاحتفاظ بحق الاستفادة من الحكمة وحقائق المعرفة والعلم أني وجدت، ولذا توصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها عربية في لغتها، إسلامية في جذورها، إنسانية في أهدافها، وهي شأن كل ثقافة، تتكون من مقومات أساسية فكرية وروحية، أهمها العقيدة، وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها والتاريخ والتراث ووحدة العقلية والمزاج النفسي[2].

والإسلام يقدم نسقاً ثقافياً متكاملاً يتحدد بمقتضاه نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى ثنائية تكوينه من جسم وروح، وأن الروح من أمر الله، وأن للحياة البشرية قدسيتها باعتبار الروح وديعة من الله في الإنسان ولا بد من المحافظة عليها، إضافة إلى النظرة إلى الكون، ونظرة الإنسان إلى الخالق، والنظرة إلى الآخرين وبالذات إلى أتباع الديانات السماوية الأخرى، فإذا كان القرآن الكريم ينص على أن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس، فإنه ينص في الوقت ذاته وفي سورة البقرة على أنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:256)[3].

(1) أمير عبد العزيز، "دراسات في الثقافة الإسلامية، مدخل إلى الدين الإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1979م، ص207.

(2) عبد العزيز التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1998م، ص11.

(3) أحمد أبوزيد ، "الإطار الاجتماعي والثقافي للمجتمع العربي"، في: المجتمع العربي، الطبعة الأولى، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، 1989،ص 457.

والإسلام دين حياة ودنيا بقدر ما هو دين عقيدة وآخرة، وهي أمور تنعكس بالضرورة في المجتمع العربي المعاصر الذي يؤلف المسلمون حوالي 90% من سكانه، فالإسلام ليس مجرد دين أو عقيدة بالمعنى العام الشائع البسيط.. كما أنه ليس مجموعة من القواعد السلوكية التي تنظم حياة الإنسان والمجتمع، وإنما هو أسلوب كامل للحياة يصل تأثيره إلى جوانب الوجود الإنساني كلها ويصبغها بصبغة خاصة متميزة... إنه يقود حركات الإنسان ويوجهها في كل مضارب الحياة: الفردية منها والاجتماعية، المادية منها والمعنوية، الأخلاقية منها والاقتصادية والقانونية والثقافية، القومية منها والدولية على السواء[1].

كما أن الإسلام ثقافة وحضارة معاً، أي أنه نظام قانوني كامل وشامل، كما أنه نسق اقتصادي وطريقة للعمل وأسلوب للحكم والإدارة، فهو يضع قوانين محددة للسلوك والتصرف في الحياة اليومية وتوجيهات للملبس والمأكل والصحة العامة والعناية حتى بجسم الإنسان ؛ وهي كلها أمور ومسائل لا توجد في غيره من الشرائع – على الأقل بهذا القدر من الوضوح – ولذا فإن الإسلام يبدو مسيطراً تماماً على حياة الناس بما في ذلك (التقدميون) و (المتحررون)؛ وذلك لأنه ثقافة وحضارة وأسلوب للحياة وطريقة للتعامل بقدر ما هو نسق من المعتقدات وطريقة للعبادة[2].

ومن الصعب إلى حد كبير الفصل في التجربة الإسلامية بين ما هو ديني وما هو غير ديني، لأن تعاليم الدين تتغلغل في كل جوانب الحياة في المجتمع

(1) أبو زيد، مرجع سابق، ص455
(2) نفسه.

العربي والإســـلامي، كما أن الدين يوجه التصرفات الفردية والسلوك الجماعي على السواء. وأفضل مثال لذلك هو تدخل الدين في تنظيم العائلة والقرابة والزواج وما يترتب عليها من حقوق وواجبات ومسؤوليات والتزامات في حالتي الحياة والموت[1]، هذا وقد تبلورت وتجسدت هذه الخصائص الفريدة للإسلام في عديد من المقومات التي غيرت الثقافة العربية الإسلامية والتي تبدو فيما يلي:-

1- **تتسم الثقافة العربية الإسلامية أساساً بسمتين: سمة الثبوت** فيما يتعلق بالمصادر القطعية، وما جاءت به من عقائد وتشريعات وقيم ومناهج، **وسمة التغيير** فيما يتعلق باجتهادات المسلمين وإبداعاتهم القابلة للصواب والخطأ، وبالتالي الاختلاف، فالجانب القطعيُّ في الثقافة العربية الإسلامية يتسم بما يتسم به الإسلام من خصائص بصفته ديناً ومنهجاً للحياة. وتتجلى هذه الخصائص في العالمية، والشمولية، والوسطية، والتنوع في الوحدة، والرؤية والتوازن[2].

2- **والقرآن الكريم يُعتبر المصدر الأساس للثقافة العربية الإسلامية** بفضل ما ورد فيه من تعاليم دينية وأخلاقية واجتماعية، ولكونه صالحاً لكل زمان ومكان ومسايراً لمتطلبات كل عصر ومستجداته، كما تشكل السنة النبوية المصدر الثاني الأساس للثقافة العربية الإسلامية. كما اعتمد المسلمون، في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، على سنة نبيهم ﷺ

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) عبد العزيز التويجري، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، 1998م، ص9.

بعد أن جمعوها ودونوها وفصلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومناهجهم المعيشية. وبذلك تكون الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة أساساً من القرآن والسنة، ثقافة متفتحة، داعية إلى التعايش والحوار والتفاهم[1]. ومعنى ذلك أنها ليست حضارة محصورة في جنس واحد من بني الإنسان أو في مجموعة أجناس وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ: 28).

والواقع التاريخي يزيد هنا المعنى تأكيداً، فقد وَسِعَت هذه الحضارة سكان الدنيا كلها بالرغم من اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتعدد أجناسهم ولغاتهم، سواء من دخل منهم في دين الإسلام أم بقى في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم، والدليل الواضح على عالمية الحضارة الإسلامية هو أن كل البيئات والشعوب التي عاشت في ظلال هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً، وترتقي بجميع مكونات هذه الحياة رقياً كبيراً، في حين أنها كانت تعاني من تخلف كبير في حياتها الروحية والعقلية والاجتماعية[2].

3- **وعالمية الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميتين منفتحتين على حضارات الأمم**، ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب، مؤثرتين ومتأثرتين. إن الإسلام ينكر (المركزية الحضارية ) التي تريد العالم حضارة واحدة، وتسلك سبل الصراع – صراع الحضارات – لقسر العالم على نمط حضاري واحد؛ لأن

(1) التويجري، المرجع السابق، ص11.

(2) مصطفى محمد طه، "حول خصائص الحضارة الإسلامية"، الفكر العربي، س 20، ع 98، خريف 1999م، ص28.

الإسلام يريد العالم (منتدى حضارات) متعددة ومتميزة، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القَسْرِيَّة، إنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام[1].

وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً، فإنه، في جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعنى أيضاً (المركزية الدينية)، التي تريد العالم ديناً واحداً، فهو ينكر هذه المركزية الدينية، عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سُنة من سنن الله في الاجتماع الديني، لا تبديل لها ولا تحويل [2].

**4- ومن أشد ما يبغضه الإسلام ويندد به ذلكم الانكماش والانحسار دون الانتهال من زاد العلوم الثابتة النافعة،** وهو انحسار ضار منكمش سيؤول بأهله إلى أوضار الجهالة والسلبية والتخلف عن ركب الحياة السريع.

كما لا يرضى الإسلام عن الإدبار عن العلم والاستفادة من معانيه وحقائقه، ولا يستطيع المدبر عن ذلك أن يتذرع بأية ذريعة ، وهو في ذلك لا يعدو أن يكون متخاذلاً جهولاً، فأن من الحقيقة أن يدعو الإسلام للاستفادة من معطيات العلوم على تعددها وكثرتها ليكون ذلك باعث قوة للمسلم وهو على طريق العبادة لله.

(1) التويجري، مرجع سابق، ص14.
(2) نفسه.

وبذلك فإن الثقافة الإسلامية غير منكمشة على نفسها فتنبذ ما تمخضت عنه أدمغة البشر وما تفتقت عنه أذهان الناس من أقوال وآراء سديدة جديرة بالتقدير، ولكنها تنظر لكل حكمة نافعة ورأي سديد بمنظار من التقدير والاحترام[1].

**5- تجمع الثقافة العربية بين الجانبين الروحي والمادي، وهي قابلة للتطور؛** فمن المعروف أن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات والأديان، ورسوله الكريم ﷺ خاتم الرسل، وحضارته، المؤسسة على هذه الرسالة، استوعبت كل تطورات الحياة الإنسانية وما استجد في حياة الإنسان من تطورات، وهي كذلك لا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي، عاجزة عن الفصل في القضايا المتجددة لهذا المجتمع البشري، في بيئاته المختلفة، المتنوعة في نشاطها الإنساني وأنظمة حياتها، وعلى هذا الأساس أقام المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطياتها الروحية والمادية، مما جعلها تحقق للإنسانية أقصى درجات طموحها في تلك العصور التي كان فيها العالم من حولها يعيش خواءً روحياً وأخلاقياً وتخلفاً واضحاً في صناعة الحياة، مقصراً عن بلوغ الغايات الإنسانية السامية التي بلغتها الحضارة الإسلامية في فترة قصيرة من عمر الزمن، حيث كان كل نشاط مادي في ظلها له غاية أخلاقية، وفيه جانب روحي[2].

(1) أمير عبد العزيز، مرجع سابق، ص 25.
(2) مصطفى محمد طه، مرجع سابق، 252.

**6- تتميز الثقافة الإسلامية بالتوازن والشمولية:** أما التوازن في الثقافة الإسلامية فأنه يعني أن الإسلام بثقافته يحرص على مراعاة هذه الجوانب جميعاً، فلا يعتمد جانباً ولا يركز على مطلب في الإنسان دون غيره ولكنه يوزع اهتمامه وحرصه على الجوانب كلها في آن واحد، من غير محاباة أو تمييز مثلما تفعله المبادئ والأنظمة الوضعية التي صنعها البشر، وهذه إحدى الحقائق التي أكسبت الإسلام خاصية الصلاح لكل زمان ومكان[1].

أما الشمولية فتشير إلى أن الإسلام بثقافته يتناول شتى مناحي الحياة للإنسان، ويتناول كافة الجوانب الرئيسية الأصلية للبشر، فهو يتناول كلا من الجانب البدني والنفسي والروحي والعقلي.

وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يجمع جمعاً متسقاً وثيقاً بين حياة الإنسان المادية والروحية، فلا يذر الإسلام جانباً من جوانب الإنسان ليكون مهملاً بغير حسبان أو رعاية، ولكنه ينظم جميع هذه الأركان التي يتألف من مجموعها الإنسان ليكتمل بناؤه الشخصي[2].

(1) أمير عبد العزيز، مرجع سابق، ص 28.
(2) المرجع السابق، ص27.

# القسم الثاني

# الثقافة الإسلامية بين الازدهار والاضمحلال

كان للإسلام وثقافته المتميزة دور بارز في نهضة المسلمين وتفوقهم على غيرهم، كما لعب دوراً مهماً في ازدهار حضارتهم وتغيير واقعهم وتقوية دولتهم، فلم تستطيع الحضارة العربية الإسلامية أن تحقق ما وصلت إليه من تقدم وازدهار إلا باعتمادها على الدين الإسلامي، فبفضل الإسلام توحدت قبائل شبه الجزيرة العربية، وانطلق العرب في فتوحاتهم حاملين معهم رسالتهم، ولم يكد ينقضي أكثر من قرن واحد على وفاة النبي ﷺ حتى أصبح للعرب دولة امتدت امتداداً كبيراً من شواطئ المحيط الأطلنطي غرباً إلى بوادي الصين شرقاً، ومن سواحل البحر المتوسط شمالاً حتى شواطئ المحيط الهندي جنوباً[1].

ولم يكن دور العرب قاصراً على التوسع في تلك الرقعة الفسيحة من العالم المعروف آنذاك فحسب، بل في منحهم تلك البلاد حضارة جديدة أخذت بنصيب من الحضارات السابقة لها وأضافت إليها.. فعلى الرغم من الانقطاع أو عدم التواصل الحضاري بين تلك البلدان وما كان لها من تراث حضاري، فإنها مع ذلك لم تفقد طاقاتها الإبداعية التي بدت في ما اتسمت به الحضارة العربية الإسلامية من تفوق[2].

(1) جمال زكريا قاسم، 1981 ، " منجزات الحضارة الإسلامية" في: المجتمع العربي، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1989م، ص265.

(2) نفس المرجع السابق.

كما أن الحضارة الإسلامية استطاعت أن تحقق الكثير من المنجزات في مختلف المجالات المادية والفكرية، وقد حدث ذلك حين كانت معظم أنحاء القارة الأوربية تعيش عصور التأخر والاضطراب. وما كادت الأمور تستقر حتى أقبل الأوربيون على دراسة المصنفات العربية، والتعرف من خلالها على أسس النهضة العربية الإسلامية. وترتب على ذلك تحرير أذهان الأوربيين من أوهام العصور الوسطي، مما مهد السبيل لعصر النهضة الأوروبية الحديثة. ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي أخذ فيه الأوربيون يعكفون على دراسة منجزات الحضارة العربية الإسلامية والإفادة منها، كانت النكبات تتوالى على الأمة العربية الإسلامية حتى أنها أقبلت على مطالع العصور الحديثة وهي تعاني قدراً كبيراً من الركود والتأخر بينما بدأت أوروبا عصر نهضتها وتقدمها[1].

ونصل إلى واقع مؤسف مؤداه أن الهيمنة الغربية اتسعت على باقي الشعوب الأخرى غير العربية والإسلامية في سائر القارات، وقد أدى نجاح هذه السيطرة الغربية إلى منح نفسها زيادة ثقة بالنفس إلى درجة وصلت إلى الغرور والتعالي على الآخرين، انطلاقاً من أن نجاحهم وتقدمهم هذا يشير إلى مدى تفوق ثقافتهم على غيرها من الحضارات المنافسة لها، وبوجه خاص الحضارة والثقافة الإسلامية. وواقع الأمر أن التنافس قد بلغ مداه منذ احتكاك الحضارتين ووصل إلى درجة التحدي أو الصراع، الذي يأخذ أشكالاً مختلفة، إما بصدام الحروب، أو الهيمنة على الأسواق، أو الغزو بالثقافة والأفكار[2].

(1) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص290-291.

(2) صلاح عبد المتعال، مستقبل التنمية... نحو بديل حضاري إسلامي، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، 1991م، ص12.

كما أن الثقافة العربية الإسلامية اتخذها بعض راسمي سيناريو المستقبل عدوًّا عندما اختفى الصراع الأيديولوجي بين الغرب والاتحاد السوفيتي، كأن الصراع شرط لوجود الولايات المتحدة، ولعل هذا السيناريو أخذت عناصر تنفيذه تتهيأ – وإن كانت مزيفة – لتلويث العالم الثقافي، كما لُوِّث عالم البيئة، فإنهم يريدون أن يوقدوا ناراً للحرب الحضارية كما أوقدوها من قبل وسموها بالحرب الباردة الأيديولوجية[1].

فقد حاول "هنتنغتون" أن يثبت أن نهاية الحرب الباردة التي كانت تغذي الصراع الأيديولوجي لا تعني نهاية الصراع، ولكن نقل الصراع إلى ساحة الثقافة. وبدل أن يكون خط المواجهة، كما كان في حقبة الحرب الباردة، بين أنصار العقائد الاجتماعية والسياسية المتعارضة، بصرف النظر عن ثقافة هؤلاء الأنصار، أصبح هذا الخط يمر أساساً بالاختلافات الثقافية، وأصبح الصراع بين أتباع الثقافات المختلفة هو المنبع الرئيس للحروب المعاصرة، مشيراً إلى ما يقول به من التحدي المتزايد الذي يظهره العالم الإسلامي للثقافة والسياسة الغربية .

وقد قصد هنتنغتون من هذا التحليل أن ينبه الغرب إلى أن الصراع لم ينته في العالم، بل إنه بالكاد قد بدأ، على الرغم من أنه لم يعد صراعاً سياسياً اقتصادياً وإنما تحول إلى صراع القيم والمبادئ والمفاهيم والرؤى، أي الثقافات بالدرجة الأولى. وقد أشار بشكل خاص إلى خطر الإسلام الزاحف بثقافته وعقائده المتطرفة، كما أشار إلى خطر التحالف الممكن بين عالم الإسلام والعالم الصيني

(1) عليان الطالبي، " نظرة نقدية للتنمية الثقافية في البلاد العربية"، في: المسلم المعاصر، ع 87، س 22، فبراير – أبريل 1998م، ص180.

الصاعد أيضاً[1].

وبعد أن يعترف "فوكوياما" بأن الخطر الإسلامي يمثل الخصم الإيديولوجي الوحيد المتبقي في مواجهة إيديولوجية النظام العالمي الجديد، الليبرالية- الديموقراطية، التي يراها مزهوة بانتصارها على الشيوعية والثيوقراطية والأرستقراطية والملكية والاستبدادية والفاشية والنازية، يرد هذا الخطر إلى خاصية النظام الفكري للإسلام أكثر مما يعتبره ترجمة للقوة السياسية أو العسكرية، فدعوة الإسلام —كما يؤكد فوكوياما- ذات طابع شمولي، وهي تتوجه إلى جميع الناس كبشر وليس باعتبارهم أعضاء في مجموعة إثنية أو قومية خاصة فحسب.

والإسلام في الواقع، وكما يرى فوكاياما، هزم الديموقراطية - الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي، وهو يشكل تهديداً كبيراً للممارسات الليبرالية، حتى في البلدان التي لم يستطع فيها استلام السلطة مباشرة. فإذا كان الإسلام قادراً هكذا على منع انتشار الليبرالية- الديموقراطية في العالم الإسلامي، فإن خطره على النظام العالمي سوف يأخذ منحى أكثر خطورة: تهديد النظام العالمي في عقر داره[2].

وفي هذا السياق، يصبح الإسلام والإرهاب وجهين لعملة واحدة، ذلك أن الدعوة إلى القتل فكرة ثابتة لا يعرف المسلمون التلفظ بغيرها، كما يقول روفيل، مضيفاً أنه "لا يمكن أن نصف بالتسامح ديانة يتساوى فيها الاختلاف

(1) برهان غليون، "العولمة وحوار الثقافات"، في: مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1998م، ص8.
(2) علي الشامي، "الإسلام في النظام العالمي" في: شؤون الشرق الأوسط، ع 34، أكتوبر، 1994م، 33-34.

مع الإعدام.. إن الإسلام هو مصدر تسعة أعشار الإرهاب العالمي الرسمي[1].

ومن هنا نجد أن الثقافة العربية الإسلامية تواجه أخطاراً وتحديات عديدة ناجمة عن آثار العولمة الثقافية، بيد أن آثار العولمة الثقافية لا تقتصر على توسيع إمكانيات التفاعل الثقافي بين الثقافات التاريخية الكبرى، إنها تحمل أيضاً أخطاراً كبيرة وتحديات لن يكون بمقدور جميع الثقافات مواجهتها والرد الإيجابي عليها.. ومن هذه التحديات:-

1- **تعميق دينامية السيطرة الثقافية**، أو الإمبريالية الثقافية، وتأكيد سيطرة وقيم الثقافات الكبرى التي تنجح في استخدام التقنيات الاتصالية الحديثة وتحتل الفضاء العالمي الجديد.

2- **تفجير أزمة الهوية ومشكلة التعرف على الذات**، بل تحديد الذات؛ فمع تزايد نفوذ الثقافات الأقوى في فضاء مفتوح يتضاءل وزن الثقافات الوطنية ونفوذها[2]. ذلك لأن التعرض لسيل عارم وفيض هائل من أنواع السلوكيات والقيم الغربية عبر القنوات الفضائية، والإنترنت، وما يترتب على ذلك من تأثير شديد بها، بل تبني لما هو سلبي ومغاير للقيم العربية الأصلية، الأمر الذي ينذر بأخطار اجتماعية ويهدد معالم الهوية الثقافية للأسرة العربية عامة والأجيال الشابة (من النوعين) خاصة.

3- يتخذ "الغزو الثقافي" أشكالاً أخرى لا تقل عن ذلك خطورة مثل محاولات **(تفريغ) العالم العربي من كفاءاته العلمية والإبداعية** عن طريق تشجيع هذه الكفاءات على الهجرة إلى الغرب، وهي الظاهرة التي تعرف الآن باسم

(1) نقلاً عن الشامي، المرجع السابق، ص35.
(2) برهان غليون، مرجع سابق، ص13.

(هجرة العقول) أو (هجرة الأدمغة)، أو عن طريق تفريغ الثقافة العربية الإسلامية ذاتها من مضامينها وإنجازاتها عن طريق التشكيك في قدرات هؤلاء العلماء والمبدعين والمفكرين العرب والتهوين من شأن إنجازاتهم وقيمتها وأصالتها، بل ومحاولة رد أي نوع من الإبداع الثقافي المتميز إلى تأثر هؤلاء المبدعين بالثقافات غير العربية أو حتى انحدارهم من أصول غير عربية. وهذه الدعاوى تجد لها صدى كبيراً عند كثير من المثقفين في العالم العربي، فيرددونها دون إدراك منهم لحقيقة الأهداف الخطيرة التي ترمي إليها[1].

كما أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي العربي يعاني من مشكلات عديدة تتبدى فيما يأتي:-

1- **إبطاء في الأداء التنموي**، تعكسه المؤشرات الإحصائية والديموجرافية المختلفة، وتبدو في انخفاض معدلات الإنتاجية في القطاعين الزراعي والصناعي، ورجوح كفة الواردات عن الصادرات، وانخفاض معدلات الدخول الفردية، وتدهور المستويات المعيشية، وتفاقم العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية في مختلف القطاعات المجتمعية والريفية والحضرية.

2- **كثرة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية**، وعلى رأسها التلوث البيئي، والبطالة، والفقر، والتفكك الأسري، وارتفاع معدلات الجرائم وتنوعها، وتدهور الخدمات الأساسية وعدم القدرة على إشباع الحاجات الأساسية للأفراد: التعليمية والثقافية والاجتماعية.

3- **تحول الدول العربية من منتجة إلى مستهلكة**، مع ازدياد واتساع الفجوة

(1) أبو زيد، مرجع سابق، 465.

بينهما وبين الدول المتقدمة، علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً.

4- **تهديد الكيان الأسري العربي**، من حيث مقوماته ودعائمه وقيمه التي تحكم علاقاته، والمعايير التي تحدد الوظائف المختلفة التي يؤديها.

يضاف إلى ذلك كله أن الأمة العربية الإسلامية تواجه العديد من التحديات الأخرى، لعل من أبرزها تلك المتعلقة بنتائج الثورة العلمية والثقافية، فإن العلاقة بين التعليم العالي والتقدم التقاني ذات اتجاهين:

فمن جهة يؤدي تطور التقانات إلى تغيير في محتويات التعليم والتكوين (على الأقل في الجزء المتعلق منها بتلبية حاجات سوق العمل) وفي طرقها وأدواتها. ومن جهة ثانية ، بتلبية تطور التعليم العالي بدوره إلى تغيير في تطور التقانة واهتماماتها ومساراتها بل وفي سرعة تطبيقها على وضع خطة بحثية متممة للخطة الشاملة والمتكاملة، ترتكز على أهداف وبرامج ومشاريع التنمية العربية وليس نقلاً وتقليداً لعمل البحث والتطوير الأجنبي وغاياته وأهدافه. وضمن هذه الخطط يجب أن يتم تغيير دور العلم في التنمية، وتسخيره لخدمة جهة التنمية، وأن ترسم برامج البحث العلمي وتعمل لتبدأ في المختبر وتنتهي بالاستعمال[1].

وإذا كان هذا هو واقع المجتمع العربي الإسلامي المتردي، فهل أسبابه راجعة إلى الإسلام وثقافته؟ وهل هناك من سبيل لتغيير هذا الواقع ومواجهة تلك التحديات؟ هذا ما سنعرضه في القسم القادم.

(1) ميثاء الشامسي، أولويات البحث العلمي في الوطن العربي، ورقة مقدمة إلى مؤتمر "أولويات البحث العلمي والتكنولوجيا في الوطن العربي"،الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، مارس 2002م، ص14.

# القسم الثالث

# الثقافة الإسلامية بين إمكانات تغيير الواقع ومواجهة تحديات المستقبل

كشفت الحقائق التي عرضنا لها في القسمين السابقين عن جوهر الرسالة الإسلامية ومضمونها الذي تعكسه الثقافة الإسلامية بمقوماتها المتميزة وخصائصها الفريدة، ومعالمها المتعددة، وأن هذه الرسالة قد استوعبها المسلمون الأوائل وحملوا لواءها باقتدار، ونفذوا مضامينها بإخلاص وأمانه، فكُتب لهم الاستعلاء والسيادة، ليست فقط الإقليمية بل والعالمية. كما تمكنوا من إقامة كيان اجتماعي متماسك، وأسسوا دولة قوية ذات نظم سياسية واقتصادية متميزة كفلت للأفراد والجماعات العيش في استقرار وأمن، ومكنتهم من التعامل بتسامح دون تعصب مع الآخرين، كما استطاعوا، من خلال التوظيف الواعي لمصادر الثقافة الإسلامية، أن يحرزوا تقدماً هائلاً في المجالات العلمية والفكرية التي أثرت في الحضارات والثقافات الأخرى.

ولكن صورة الحاضر، تبدو مغايرة تماماً، ذلك لأن الواقع يبرهن على أن المجتمعات العربية الإسلامية تعاني من مشكلات عديدة، اجتماعياً واقتصادياً، وأن هويتهم أصبحت مهددة، وأن قوتهم تبدلت إلى ضعف، وتحولوا من منتجين إلى مستهلكين، ومن مبدعين إلى تابعين، خاصة في المجالات العلمية والتكنولوجية، كما أنهم في مأزق خطير لمواجهة تأثيرات العولمة ومضامين الثقافات الأخرى، وفي وضع يتعين عليهم الدفاع عن هويتهم وتصحيح صورة

الإسلام التي رسمها الغرب واصفاً الإسلام بأنه دين التعصب والإرهاب والتطرف... فهل يمكنهم تحقيق ذلك؟ هذا ما سنعرض له في الفقرات القادمة.

وتقتضي الموضوعية تأكيد عدة حقائق، هي:

– أن أسباب التردي والمشكلات التي تعاني منها المجتمعات العربية لا ترجع إلى الإسلام، كما أنها ليست متعلقة بمضمون الثقافة الإسلامية، خاصة ما يتعلق بالنسق الفكري كما تعكسه القيم الإيجابية التي جاء بها الإسلام لدعم وتغيير البناء الأسري والاقتصادي والسياسي، ولكن في التفريط في هذه المضامين والتهاون في ممارستها والامتثال لها، قولاً وعملاً.

– إن الأسباب لا ترجع إلى مصادر الثقافة الإسلامية، فهذه المصادر – القرآن والسنة– خالدة، وصالحة لكل زمان ومكان، وبفضل العمل بها تمكن المسلمون الأوائل، كما أسلفنا، من تحقيق نهضة شاملة وتغييرات مذهلة... ولكن السبب يرجع إلى هجر هذه المصادر والاعتماد على مرجعيات فكرية واردة من مجتمعات أخرى كموجهات للفكر، ومحددات للسلوك الفردي والجماعات ومنظمات لشؤون المجتمع وسياساته.

– الأسباب المؤدية إلى تشويه صورة الإسلام، ليست راجعة إلى رسالة الإسلام ومضمونها، فالإسلام – كما أسلفنا – ليس دين "إرهاب" ولا يدعو إلى التعصب، بل دين تسامح يدعو إلى المحبة والسلام، ولكن الأسباب ترجع إلى عدة عوامل منها " الأمية الدينية " وتدهور أحوال بعض الجماعات المتطرفة، اقتصادياً واجتماعياً، وتفاقم الصراعات الطائفية والإثنية، كما ترجع – في المجتمعات الأوربية والأمريكية– إلى الجهل بأمور الإسلام، وعدم التعمق في فهم

ثقافته واستيعاب خصائصها المتميزة، وإلى الحقد الديني الكامن في صدور بعض المفكرين بل وعامة الأفراد والجماعات في هذه المجتمعات.

– أسباب التردي الاقتصادية في المجال التنموي وضعف أدائه، والمشكلات المتصلة بالهوية الثقافية، ليس مرجعها إلى طبيعة الإسلام وثقافته، وإلا فكيف حافظ المسلمون الأوائل على هذه الهوية وتمسكوا بها؟

إن الأسباب عديدة منها: عدم تطبيق ما جاء به الإسلام لتحقيق النهضة الاقتصادية والاجتماعية، عن طريق التفكير والإبداع، وحسن الاستغلال لمختلف الموارد، واحترام العمل، وتقدير الإنجاز والإنتاج، وعدم الإفراط في الاستهلاك، وحسن التخطيط، والحفاظ على الممتلكات وصيانة الثروات، والأهم من ذلك التأهيل للموارد البشرية عن طريق العلم واكتساب المعرفة على المستوى النظري والتطبيقي. هذا إضافة إلى قيم التكامل الاجتماعي، والتعاون بين الأفراد والجماعات، وبين المجتمعات بعضها بعضاً، والمساواة، والعدل الاجتماعي، والأمانة، والصدق والإخلاص ... الخ

يضاف إلى ذلك: غياب وتقاعس دور المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية، وتخطيط برامجها على أسس إسلامية رشيدة، تجعل الأفراد على صلة بدينهم وتزكي نفوسهم، وتربي عقولهم، وتقوي عقيدتهم. ويدعم رأينا هذا ما أكده "الطالبي" [1] حين أشار إلى أننا في العالم الإسلامي ينبغي أن نجند وسائل الاتصال

(1) عليان الطالبي، مرجع سابق، ص72.

الحديثة، وهي غربية في مصدرها، لخدمة ثقافتنا الذاتية، أما إذا كان استخدامنا لها لنشر الثقافة الغربية، فقد نكون قد شاركنا في هدم ثقافتنا بأنفسنا، وهذا الذي نراه للأسف في أغلب قنواتنا الفضائية وغيرها من وسائل إعلامنا والتي لا تقدم إلا الأشياء الهزيلة. ومستقبل الإسلام يتوقف على مدى اتصالنا بمصادره، ومدى تغذية نفوسنا وعقولنا بها، باعتبارها طاقة دافعة لحركة التاريخ والحضارة. ونظراً لقوة وسائل العولمة الغربية فإن التاريخ يتطلب منا جهداً مضاعفاً، وجهاداً متواصلاً من أجل ألا نضيع في غبار التاريخ، فإن لم نتفوق في هذه العولمة فلا أقل من أن نحفظ ماء وجوهنا، والضروري من أصول ثقافتنا.

– لهذه الأسباب، نؤكد أن صورة الحاضر القائمة والمقلوبة، لم يرسمها الإسلام ولا ثقافته المتميزة، وإنما الطريقة التي وظفت بها مبادئ الإسلام ومضامينه في رسم هذه الصورة.

– ولذا فإن على المجتمعات العربية الإسلامية، أفراداً وجماعات ومؤسسات، مهمة تغيير هذا الواقع ومواجهة التحديات الحالية والمستقبلية، سواء على المستوى الإقليمي أو العالمي، مستلهمين ومسترشدين بما جاء به الإسلام من مبادئ، وما تتضمنه ثقافته من مقومات وخصائص، سبق أن أشرنا إليها في القسم الأول.

ومن بين هذه التحديات التي ينبغي مواجهتها:

– **الدفاع عن الهوية الثقافية**، والتمسك بها، والمحافظة عليها.

– **تعديل الأداء التنموي**، وإيجاد حل للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية

التي تواجهها مجتمعاتهم.

- **ضرورة التفاعل مع الثقافات الأخرى**، والتعامل مع متغيرات العولمة الاقتصادية والتكنولوجية.

- **ضرورة تصحيح الصورة المشوه التي يرسمها "الغرب" " عن الإسلام"**.

ويبقى السؤال: كيف يمكن الاستفادة من إيجابيات الثقافة الإسلامية في تحقيق ذلك؟

الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى مقالات مستقلة، ولذا فإننا سننتقى بعض القضايا لإلقاء الضوء عليها في الفقرات القادمة.. وتتبلور هذه القضايا فيما يلي:-

**أولاً**: أن للثقافة الإسلامية قدرة على مواجهة محاولات الغزو والاستلاب والتشويه الثقافي ورفضها لكل محاولات طمس الهوية وتشويه المعالم الثقافية العربية، ولم ينجح الاستعمار الحديث في محالاوت الفرنسة أو التهويد أو البلشفة، وساعدت الخصائص الأخرى للثقافة العربية، خاصة المرونة والدينامية، على المحافظة على الهوية والتمسك بأصالة القيم ومبادئ العقيدة.

وهنا نؤكد أن الثقافة المعولمة أو التي يراد تعميمها هي في الواقع ثقافة الغرب الرأسمالي. إذ على الرغم من أنها - كما قلنا فيما سبق - تمثل الثقافة السائدة أو قل الثقافة الغالبة في هذه الأيام، إلا أن ما تحمله من مبادئ وقيم هي في الواقع مبادئ وقيم مادية في جوهرها. ولا تستقيم حياة الإنسان ككل إذا ما

عاش وفقاً لهذه الثقافة المادية[1].

كما أن هويات الشعوب الثقافية تستند على عراقة الحضارات التي تنتمي إليها وتاريخية هذه الحضارات. ومن ثم فإن الشعوب إن قلدت النموذج الثقافي الشائع والسائد فإن هذا لا يستتبع أنها قد وقعت أسيرة لهذا النموذج المقلد، لأن الشعوب سرعان ما تمل من التقليد وتعود إلى التمسك بأصالتها خاصة وأن النموذج الثقافي السائد والغالب يعد نموذجاً هشاً يركز على بُعد واحد، بينما الإنسان كائن مركب، والبُعد الروحي فيه هو الأصل وليس البُعد المادي المتمثل في الجسد.

وعلى ذلك، يمكننا أن نشير باطمئنان إلى أنه رغم هذا التناقض في الأهداف، إلا أن ذلك لا يحول بين التفاعل الحضاري في المجالات العلمية والعملية، وقد تكون هذه الحدود التي يقف عندها التفاعل بين الحضارتين الإسلامية والغربية، فالتفاعل في المجالين العلمي والعملي لا يفقد الحضارة الإسلامية شخصيتها، فعندما تفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضارة اليونانية لم تفقد الحضارة الإسلامية شخصيتها كما أن الحضارة الغربية عندما تفاعلت مع المناهج العلمية المتقدمة لدى الحضارة الإسلامية لم تفقد الحضارة الغربية شخصيتها، إنما الذي يفقد الشخصية الحضارية مميزاتها واستقلاليتها هو تنازلها عن أهدافها الأساسية، حيث لا تتفق الحضارتان الإسلامية والغربية في ذلك، فالحضارة الإسلامية تهدف أساساً إلى الرقي الداخلي – الروحي- حيث تتغلب اعتبارات القيم الروحية والأخلاقية على قيم المنفعة الخالصة، بينما يسود الحضارة الغربية المبالغة في الانتفاع المادي في جميع مظاهر الحياة، أما الوجود

(1) مصطفى النشار، " في فلسفة الثقافة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص59.

الديني والأخلاقي فهو أمر فطري محض يجب ألا يمت إلى واقع الحياة بصلة.

وبناء على هذا التناقض في أهداف الحضارتين الإسلامية والغربية، فإنه لا يمكن أن يتكيف أسلوب الحضارة الإسلامية الراهنة مع الحضارة الغربية الحديثة، أو يخضع لها.. بتعبير آخر، فكما ذكرنا، يقف التكيف عند حدد الاستفادة العلمية والعملية، أما في مجالات تنظيم العلاقات الاجتماعية والثقافية فإنه أمر قائم بذاته يجب ألا يخضع لأي تقليد أعمى لنماذج العلاقات في الثقافة أو الحضارة الغربية[1].

**ثانياً**: سبق أن أكدنا أن الثقافة الإسلامية تتمتع بالدينامية والحركة مع قابلية التطور والتجدد من خلال الأنماط المختلفة، فهي لم تنغلق ولم تتقوقع، ولهذا عاشت ونمت وتطورت، وهي لم ترفض الجديد لأنه جديد ولم تنأى عن الإبداع لغرابته ولكن أخذت من الجديد ما يناسب احتياجاتها وصاغت من الإبداع صوراً كثيرة تحقق لها بعدي الأصالة والمعاصرة. وحتى تكون الثقافة العربية فاعلة وقادرة لابد لها من أن تكون متفاعلة مع غيرها من الثقافات حتى تتمكن من المشاركة والعطاء دون انكفاء على النفس تقوقعاً، ودون اندفاع إلى الخارج ضياعاً. وإذا ما حدث ذلك ستصبح الأمة العربية أمة مؤثرة في مجريات الأحداث العالمية، مؤثرة في الاتجاهات العالمية خاصة اتجاهات الحرب والسلام، واتجاهات التنمية الدولية، واتجاهات التربية الدولية، واتجاهات الاقتصاد العالمي. وأن التفاعل الثقافي يعطي الأمة العربية حضوراً دولياً ويعطي للثقافة العربية مكاناً بارزاً ومتميزاً بين الثقافات، كما يجعلها تبقى على أصالتها، ويمكنها من

(1) عبد المتعال، مرجع سابق، ص 27.

المعاصرة الإيجابية[1].

وفي هذا الصدد، نؤكد أن إعادة بناء الثقافة المعاصرة لا يتوقف عند حد إحياء التراث، وخاصة عناصره الإيجابية الباعثة على التقدم والداعية إلى الأخذ بأسبابه والراسمة لطريق تحقيقه في مختلف المجالات، وإنما ينبغي في ذات الوقت وبنفس القدر من الجرأة أن ينفتح العقل العربي على تلقي نتاج مختلف الثقافات المعاصرة دون خشية الوقوع في براثنها أو الذوبان فيها. فطالما نملك موروثاً حياً ملهماً قوياً، لا خوف علينا من الذوبان في (الآخر)، أو فقدان ذاتيتنا في ذاتيته؛ فالذوات الفكرية والحضارية تتقابل وتتفاعل وتتزاوج وتتلاقح على مر العصور دون أن تفنى ذات حضارية قوية في ذات حضارية على نفس المستوى من الصلابة والقوة[2].

**ثالثاً**: أن للثقافة الإسلامية قدرة على التكيف مع مقتضيات التطور بفضل ما تميز به الإسلام من نظرة وسطية غير مثالية، ومن تشجيعه على التفكير والتأمل ودعوة الناس ليتعارفوا ويتآلفوا، وهنا نؤكد على أهمية وفاعلية الحوار بين الحضارات، إلا أن الحوار الحضاري الإيجابي والفعال، يتطلب فهم الذات الحضارية، كمقدمة لفهم (الآخر) الحضاري، والعكس يكاد يكون صحيحاً. وهذا الفهم لايتم بمدح الذات أو (الآخر) الحضاري، ولا بهجاء الذات أو (الآخر) الحضاري، إنه يتطلب درساً وفحصاً للذات الحضارية، قدراتها وإمكاناتها، والمعيقات التي تحول دون تجددها. كما يتطلب فهم قدرات (الآخر)

(1) محمد عزت عبد الموجود، " استراتيجية الثقافة العربية.. شروط ومتطلبات تنفيذها" في : ندوة الثقافة العربية: الواقع وآفاق المستقبل، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة، 1993م، ص669.
(2) النشار، مرجع سابق، ص165.

وإمكاناته، وجوانب قوته وحركته. كما أن الحوار مع الحضارات الأخرى، خاصة الحضارة الغربية، ليس اختياراً، وإنما ضرورة من ضرورات التجدد الذاتي، وامتلاك شروط السيطرة على مقومات هذا التجدد، وهنا ينبغي تأكيد ما يأتي:

أ- أن الحضارة الغربية ليست متجانسة على نحو مطلق، ففيها جوانب فكرية وتقنية تحتاج إلى التأمل وتفرض الإفادة منها. إنها ليست شراً كلياً كما يتصور بعضهم[1].

من هنا نؤكد أنه يجب على المثقف العربي المسلم أن ينظر إلى الوقائع "من زاويتها الإنسانية الرحيبة ليدرك دوره الخاص ودور ثقافته في الإطار العالمي"، ويتهيأ إلى الحوار مع ثقافة (الآخر)، والحوار معه حواراً يحفظ به وجوده، وينمي ثقافته ليكون في مستوى التفاعل الحقيقي لا في مستوى الخضوع والاستسلام، وهذا الحوار يكون سبيلاً للتقدم لا سبيلاً للوقوف على هامش التاريخ.

ب- أن العولمة من شأنها أن تقوي عزمنا على البحث عن مناهج ترسيخ جذورنا وانتمائنا، فالعالم لا يخلو من الصراع، بأشكاله المختلفة، كل حضارة تدافع عن وجودها وتفيد من الحضارات الأخرى، وتختلف درجة الصراع من عصر إلى عصر ولكن الجوهر واحد. وليس السبيل إلى نجاتنا أن ننسحب من الواقع أو نستسلم له، فلماذا لا نفكر في نسق استراتيجي لتنمية شاملة واقعية في التخطيط والتنفيذ لرفع مستوانا إلى مستوى الحضارة؟[2].

(1) عبد المعطي، مرجع سابق، 255-256.
(2) الطالبي، مرجع سابق، 195.

وهنا نتفق مع الرأي[1] الذي يؤكد أن تخوف الدول العربية من العولمة ترجع أسبابه إلى ما تعانيه هذه الدول من مشكلات اقتصادية وثقافية نجمت عن الفرقة والانقسامات وانعدام التخطيط والتنسيق والتعاون بين الدول العربية، كما ترجع إلى سوء تفاعل الدول العربية مع التكنولوجيا، فلا توجد سياسات وطنية تهدف إلى تطوير وتوطين كفاءات ومؤسسات محلية.

فنحن العرب تقع على عاتقنا مسؤولية مصيرية للتعامل مع العولمة، فنحن نملك القوى الاقتصادية والبشرية، ولدينا الرصيد الثقافي والحضاري الكبير الذي يساعدنا في إقامة مشروع أو رسم استراتيجية عربية متكاملة، اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وإعلامية، قادرة على المنافسة والتأثير والتأثر بثقافات وحضارات غيرنا، وليس هذا الأمر بغريب عن الثقافة العربية والإسلامية على مدى العصور، فكم تأثرت وأثرت – كما ذكرنا سابقا – في الثقافات والحضارات المجاورة لها على مر العصور والقرون وهي لم تزل شامخة تحتفظ بهويتها العربية والإسلامية.

ج–إن التعامل مع الثقافة الغربية الحديثة بالشكل الأمثل ينبغي أن يتم على أساس التخلص من كل مثالبنا التربوية والمجتمعية، التي أبرزها ميلنا إلى الانشداد إلى الوراء وتقديس الماضي، وانعدام الفاعلية الإيجابية لما نرزح تحته من قيود مثبطة للهمم ومعوقة للحركة الحرة، فضلاً عن الشعور بالاغتراب والشعور بالدونية والتخلف. إن كل هذه المظاهر السلبية في ثقافتنا العربية يجب أولاً أن نتخلص منها، وليس من وسيلة إلى التخلص منها إلا بالثقة بالنفس المتولدة من

(1) محمد صديق محمد حسن،" الثقافة العربية وتحديات العولمة (إعداد)"، في : التربية، ع 128، س 28، مارس 1999م، ص81.

دورنا الرائد في التاريخ الحضاري، ومن قدرتنا – إذا ما بعثنا في أنفسنا الهمة واتحدت الإرادات وقبلنا التحدي- على التعامل الإيجابي مع ثقافة العصر دون وجل أو خوف أو شعور بالدونية والاضطراب[1].

**رابعاً**: يمكن الاستفادة من الثقافة الإسلامية ومصادرها في تطوير النسق التربوي من أجل تحديث الواقع الاجتماعي، وتحقيق أداء أفضل في المجال الاقتصادي، وتقوية الكيان الأسري الاجتماعي، وتحديث الشخصية العربية، وإعداد أفضل للموارد البشرية العربية.. ومما يدفعنا لتأكيد ذلك ما يأتي:-

- التربية، عليها أن تكوِّن العلماء وتعد المخترعين وخبراء الثقافة؛ لأن العلم أصبح عصب الحياة وحتى يتمكن هؤلاء العلماء من أداء مهمتهم في تنمية الثقافة بما يخترعون وبما يبدعون.. وإذا أتينا إلى مناهج تعليم العلوم فإننا لا نجدها موظفة لتعليم أسلوب التفكير العلمي وأسلوب البحث والاستكشاف، ومن ثم لا تعد مخترعين أو مبدعين إنما نقلة لعلم الآخرين وحفظة لعلوم السابقين، فهي ثقافة نقلية بنكية[2].

- التربية، عليها أن تهذب النفس وتغرس الفضيلة في النفوس، وهذه الوظيفة الأخلاقية مهمة جداً للثقافة؛ لأن البعد الروحي والقيمي بها لا يقل أهمية عن البعد المادي، فإذا تقاعست التربية في أداء وظيفتها الأخلاقية ضعف الجانب الروحي والقيمي للثقافة، وقد أكدت ثقافتنا العربية الإسلامية أهمية هذه الجوانب.. فكل علم لا يحمل الخير ولا يدعو إلى الفضيلة هو عند المسلمين علم عقيم، وحمله وزر

(1) النشار، مرجع سابق، ص169.
(2) عبد الموجود، مرجع سابق، ص 693.

يُعاقب عليه الإنسان[1].

– التربية، عليها أن تعلم قيم الإنتاج وحب العمل بجميع أنواعه وأشكاله وتغرس في المجتمع قيماً اقتصادية مهمة مثل احترام المال العام، والعمل على إتقان مهارات الإنتاج، والتدريب المستمر لصقلها لمجاراة التقدم العلمي والتقني، والالتزام بالوقت، كما أن التربية مسؤولة عن تعليم الاتجاهات التنموية التي يحتاجها المجتمع مثل التخلص من السلوك الاستهلاكي، والهدر في الاستهلاك، وسوء استخدام الموارد المتاحة، وفي مقابل ذلك يحتاج الإنسان العربي أن يتعلم ترشيد الإنفاق وتنظيم الأسرة وتدبير شؤونها، وإذا ما نجحت التربية في أداء وظيفتها الاقتصادية حققت الثقافة هدفاً استراتيجياً من أهدافها وهو تحقيق التنمية الشاملة[2].

تساهم التربية في غرس ما يسمى بثقافة الإنجاز من خلال توفير الاقتدار المعرفي، فلم تقم في أمة، عبر مختلف مراحل التاريخ، إلا وكانت ثقافة الإنجاز هي إطارها المرجعي مادياً وعلمياً وتقنياً، أو فكرياً وروحياً.. والمستقبل، في متطلباته المتزايدة من الاقتدار المعرفي، يكرس بشكل لا رجعة فيه ثقافة الإنجاز المتميز، طالما أن المعرفة تحصل، والمهارة تبنى: فلا هما يوهبان، أو يمنحان، ولا هما ينزلان حظاً من السماء. ذلك هو المسار الحرج في عصر العولمة والتنمية المستدامة (سواء بسواء) والذي يحكم كل ما عداه من مسارات، مشكلاً المعبر الوحيد للشراكة العالمية.

(1) نفس المرجع السابق.
(2) المرجع السابق، ص694.

من هنا، فإن آفاق المستقبل تضغط بشكل غير مسبوق لأدراج بناء ثقافة الإنجاز في أولويات برنامج التنشئة المستقبلية. وكم هو جميل أن هذه الحالة بالذات تعيد صلتنا بحضارتنا العربية الإسلامية أكثر من أي أمر آخر. فليس هناك من دين يحض على العمل وإتقانه، جاعلاً منه المعيار في الموازنة بين الناس ورافعاً إياه إلى مصاف الجهاد الأكبر بقدر ما تحفل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. وليس هناك من حضارة قامت على الإنجاز المنفتح إنسانياً بقدر هذه الحضارة العربية الإسلامية[1].

ختاماً، لابد من التأكيد أن تحديث الشخصية العربية يستدعى تنقية هذه العقيدة المقدسة مما علق بها من أوشاب وزيف؛ إما جهلاً بالدين؛ أو حبّاً في الدنيا، أو بسببهما معاً.

كما تستدعي الرجوع إلى المنابع الصافية للإسلام، في القرآن والحديث النبوي، وإلى سيرته الشريفة؛ وإلى عمل خلفائه وأصحابه، والاستهداء بآراء المفكرين المجتهدين؛ والمواءمة بين صحة العقيدة وروح الإسلام الحقيقي القائم على الوحدانية وعلى المعرفة والعلم، والعدالة والمساواة، والتفتح والقوة، وعمارة الأرض، والتفكير في ظواهر الكون، واكتشاف أسراره الدالة كلها على قدرة الله، الإسلام الداعي إلى تكريم الإنسان وتعظيم قدره، وإلى الحفاوة بالحياة، وبالعمل والسعي... كل هذه القيم هي التي تعين على اقتحام المستقبل.

ولا بد من تصحيح الصورة التي يتعمد أعداء الإسلام نشرها عنه، مما هو منه

(1) مصطفى حجازي، " العولمة والتنشئة المستقبلية"، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 2، صيف 1999م، ص36.

براء.. وفي المجتمع الإسلامي، من يعين، ربما بحسن نية على نمو مثل هذه الانطباعات، ليس في مفهوم الآخرين عن الإسلام هو مفهوم مغرض، وإنما في مفهوم المسلمين، عن أنفسهم[1].

(1) محي الدين صابر، من قضايا الثقافة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987م، ص84.